أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي

معرفته بالبرامكة

ذكرنا فيما سبق أن أبا العتاهية كان يلتزم جانب الفضل ابن الربيع في النزاع الذي نشب بينه وبين البرامكة ، وقد أقمنا الدليل على ذلك بما كان بين الشاعر والفضل من تواد وتعاطف . وسنحاول اليوم أن ننظر إلى المسألة من جانبها الآخر ، فنرى مدى ما كان بين الشاعر والبرامكة من عداوة أو صداقة ، فإن كانت الأولى فقد استقام لنا ما ذكرناه آنفا من أن التعاون بين الشاعر والفضل كان تعاونا سياسيا يهدف إلى مضادة البرامكة ، وإن كانت الأخرى فقد التوى الحديث واضطرب

ومن حسن الحظ أن نرى الأدلة على ما كان بين البرامكة وأبي العتاهية من خلافات متعددة ، بقدر ما كانت شواهد انسجامه مع الفضل متنوعة ، ومن ذلك ما حدثنا به أبو الفرج من أن متحدثا ذكر في مجلس يحيى بن خالد البرمكي يوما أن أبا العتاهية قد نسك وجلس يحجم الناس للأجر تواضعا بذلك ؛ فقال يحيى : ألم يكن يبيع الجرار قبل ذلك ؟ فقيل له نعم ، فقال أما في بيع الجرار من الذل ما يكفيه ويستغني به عن الحجامة ؟ فإذا عرفنا أن يحيى بن خالد كان على جانب عظيم من الحصافة والرزانة؛ أيقنا أنه ما كان ليفوه بتلك العبارة المنكرة لو لم يضمر للشاعر حقدا شديدا أنساه حلمه ووقاره . ومن ذلك ما روى أيضا من أن الرشيد قال يوما للشاعر ، وقد أعجبه ما رأى حوله من مظاهر ملكه : صف لنا ما تراه في مجلسنا من مباهج الحياة . فأنشد :

عش ما بدا لك آمنا في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ ـت لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

وما كاد الرشيد يسمع الأبيات حتى بكى بكاء مرا ، فقال الفضل بن يحيى وكان بالمجلس : استدعاك أمير المؤمنين لتسره فسئته ! فقال الرشيد : دعه وما يريد ، لقد رآنا في عمى فأحب ألا يزيدنا منه . أرأيت كيف كان الفضل بن يحيى يضيق ذرعا بأبي العتاهية وبالطريقة التي كان يتبعها في بلبلة بال الرشيد وتنفيره من الحياة وزينتها ، على حين كان الفضل بن الربيع يغريه بذلك ويقيمه عليه

وشيء آخر يزيدنا إيمانا بما ذهبنا إليه من انقطاع صلات المودة بين أبي العتاهية والبرامكة ، وذلك هو أننا لا نجد له بيتا واحداً من الشعر في مدحهم . أليس ذلك عجيبا حقا في ضوء ما نعلمه من حرص أبي العتاهية الشديد على جمع المال ، وما نعلمه إلى جانب ذلك من كرم البرامكة الذي كان مضرب الأمثال ؟ فهل كان أبو العتاهية جاهلا بأنباء ذلك الكرم والبرامكة منه قاب قوسين أو أدنى يغادونه ويراوحونه في بغداد ؟ كلا لم يكن شاعرنا جاهلا بشيء من ذلك، ولكن صلته بالفضل بن الربيع

اهملت ، وأن إنسانا سأله : ما حكم رجل سها في سجود السهو فأجابه باصطلاحات النحاة : « المصغر لا يصغر »

أفبعد ذلك كله نعجب — ونحن في معرض الطبع — من أن تمثل الأمثال السواد الأعظم من لغتنا العامية أو تصبح سبعة أعشار ما ينطق به العامة في الشارع والمنزل ومكان العمل . إنها ليست سوى ظاهرة طبيعية لا عجب فيها

وإنما العجب الأكبر إن كان لا بد من العجب أن تنطلق « الأمثال » وهي صورة من صور النثر الفني في هذا النماء السريع العجيب المطرد ، وأن تتطور مع الحياة ويكتب لها الخلود في كل عصر كما تطورت « لغة الحديث » وكتب لها الخلود عاما . فتراهما تظهران في ثوبين من العامية الإقليمية في مصر أو غيرها من الأقطار العربية

ولعل ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على مابين « التراكيب المثلية » — إن صحت هذه النسبة — وبين لغة الحديث اليومية من قرابة جوهرية واضحة أصيلة لا نستطيع دفعها أو إنكارها

للكلام صلة — حامد حفني داود

ومناصرته له عليهم حرمته عطفهم ، وباعدت ما بينه وبينهم . وإذا أعوزك الدليل على ذلك ، فاستمع إلى أبي الفرج إذ يقول : سأل أبو العتاهية صالحا الشهرزوري — وكان صديقا له — أن يكلم الفضل بن يحيى في حاجة له ، فتردد صالح في ذلك وأبدى استعداده لأن يمنح الشاعر ما يشاء من ماله الخاص ، ولكن الشاعر أبى إلا ما يريد ، وأنب صالحا وقرعه في عدة مقطوعات شعرية ، ولما وصل صالحا الأبيات التالية :

أهل التخلق لو يدوم تخلق ... لسكنت ظل جناح من يتخلق
ما الناس في الإمساك إلا واحد ... فبأيهم إن حصلوا أتعلق
هذا زمان قد تعود أهله ... تيه الملوك وفعل من يتصدق

لم يجد بدا من الذهاب كارها إلى الفضل ومعه الأبيات السالفة ، وكلمه في شأن أبي العتاهية ، فقال الفضل : لا والله ما شيء على الأرض أبغض إلي من إسداء عارفة إلى أبي العتاهية ، وقد قضيت حاجته لك

أرأيت كيف كان الفرق واضحا بين معاملة الفضل بن الربيع للشاعر ، ومعاملة الفضل بن يحيى له ؟ فبينما نرى الأول لا يكتفي بما يسبغه على الشاعر من ماله الخاص ، بل ينتزع له الأموال من الخلفاء ، ويروج لأشعاره عندهم ، إذ بنا نرى الشاعر لا يكاد يجرؤ على القرب من الفضل بن يحيى حينما تعرض له حاجة عنده ، بل يطلب له الشفعاء والوسطاء .

وإننا لنعتقد أن فهم ما كان بين الشاعر والبرامكة ، وما كان بينهم وبين الفضل بن الربيع من خلاف على النحو الذي ذكرناه ؛ هو الطريق السليم إلى تفسير حدث غامض في الأدب العربي ، لا يكاد المرء يتدبره حتى يحس أن هناك فراغا في نفسه أو في القصة يحتاج إلى ملء . فقد روى الصولي في أوراقه أن يحيى بن خالد البرمكي شعر بحاجة إلى حفظ كتاب كليلة ودمنة ، ولكي يسهل ذلك الأمر على نفسه طلب إلى صديقه أبان اللاحقي أن ينظمه له . ويشتد حرص يحيى على إنجاز نظم الكتاب في أقصر وقت ، فيحبس أبانا في منزله إلى أن يفرغ منه ، ثم يعطيه جائزة سنية عند انتهائه من الكتاب . ويذكر الصولي أن جعفرا البرمكي كان يحفظ الكتاب أيضا . ثم يذكر في مكان آخر أن يحيى قال لأبان : هلا قلت شيئا في الزهد ،

وأن أبانا نظم أشعارا كثيرة في الزكاة وغيرها من العبادات . ويروى أبو الفرج أنه نظم قصيدة سماها ذات الحال ، ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق ، وينسبها بعض الناس إلى أبي العتاهية . والآن فلنناقش هذه الأخبار واحدا فواحدا . أما ما كان من رغبة يحيى وجعفرا في حفظ كليلة ودمنة فأمر يستوجب التساؤل : لم عنى البرامكة بهذا الكتاب تلك العناية الشديدة ، ولم حرصوا على حفظه أو حفظ شيء منه ، ولم كانت العجلة في نظمه عجلة أدت إلى حبس ناظمه ؟

والإجابة عن تلك الأسئلة تسهل علينا إذا نظرنا إلى موضوع الكتاب ، فما هو إلا محاورات وضعت على ألسنة الحيوانات ، وتدور حول ما يدبره بعض الناس للبعض الآخر من مكائد ، وما يبيتون لهم من شرور ، وآية ذلك أن أول قصصه وأهمها نصف حال شخصين متحابين متوادين دخل بينهما ثالث ، وما زال يسعى بينهما بالسوء حتى أفسد ما كانا عليه من مودة ثم أهلكهما جميعا . ولعل القارئ الكريم قد رأى معي تمام الشبه بين موضوع الكتاب وما كان يمثل إذذاك على مسرح بغداد من روايات ؛ أليس هذان المتحابان هما البرامكة أو قل جعفر البرمكي بالذات من جهة ، وهارون الرشيد من جهة أخرى ، كما أن الداخل الثالث بينهما هو الفضل بن الربيع . ألا يمكن أن يكون يحيى وابنه جعفر ، إنما أرادا بحفظ ذلك الكتاب أن يجدا المادة حاضرة كلما عنت مناسبة لتبصرة الرشيد بما كان يدبره له ولهم الفضل بن الربيع من مكائد توشك أن تذهب بأكفأ وزرائه وأوفى أصدقائه ، وكفى بذلك وبالا على الطرفين ؟ نعم ، قد يكون ذلك بعض ما قصدوا إليه من حفظ الكتاب . وليس ببعيد أن يكون البرامكة — وقد حاروا في أمرهم لكثرة ما يرميهم به الفضل من مكائد — قد عمدوا إلى حفظ ذلك الكتاب حتى يجدوا فيه جوابا شافيا لكل ما يعرض لهم من أسئلة ، ومخرجا مما يقعون فيه من مآزق ، وإرشادا لما يمكن أن يلتزموه من أساليب الحيطة والحذر . والحكمة حينئذ في وضع الكتاب في قالب شعري واضحة ، فإن الشعر أيسر في الحفظ وأخف على اللسان ؛ ولذلك كان مستودع المثل السائر والحكمة البالغة منذ القدم ، ولاشك أن فنا كهذا

شأنه أكثر ملاءمة لجلس الخليفة من النثر

وأما ما كان من إيحاء يحيى بن خالد إلى أبان بأن يقول شيئا فى الزهد ، مع ما يعلمه من أن الزهد ينبعث من النفس ولا يفرض عليها ؛ وما يعلمه أيضا من أن أبانا كان رأسا من رؤوس الزنادقة فى عصره ، فأمر أريد به النيل من أبى العتاهية الذى كان يحتكر (١) ذلك الفن الأدبى ، ويبنى عليه صرح عظمته الشعرية ، ولا أدل على غيرته على ذلك الفن وحرصه على ألا يشاركه فيه أحد ، من انزعاجه حين علم يوما أن أبا نواس قد بدأ يقول الشعر فى الزهد ، ثم ما كان من إرساله رسولا إلى أبى نواس يحذره أن يقول شيئا فى الزهد ؛ ويخبره أن ذلك فن اخترعه هو وسيحميه من كل مغير عليه أو مشارك فيه ، ويظهر أن أبانا لم يستطع إقحام نفسه فى عالم الزهاد ، لما عرف عنه جيدا من انتمائه إلى دنيا الزنادقة ، ولما كان لابد له من من الاستجابة لمولاه فى صورة من الصور ، فقد أخذ ينظم الأشعار فى العبادات من زكاة وصلاة ونحوها ، وكأن أبانا قد أراد أن يذكر أبا العتاهية بالأثر المشهور (ما تقرب عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه) ، وأن يخبره بأنه يجب على المرء أن يشغل نفسه بالعبادات ، لا أن يطيل الحديث عن الموت والقبور وما تؤدى إليه من خراب العالم ودماره ، مسميا ذلك زهدا وورعا

وأما ما أورده الصولى من أن أبانا قد أنشأ قصيدة سماها ذات الحلل ، وقد أودعها شيئا من المنطق ، وأن بعض الناس كان ينسبها إلى أبى العتاهية ، فدليل جديد على أن أبانا كان يعارض أبا العتاهية فى شعره ، ويحاكيه محاكاة شديدة ، حتى اختلط أمرهما على الناس ، وصاروا ينسبون ما لأحدهما للآخر

والآن وقد عرفت رأينا فى الدوافع المختلفة التى أفضت إلى ما حدث من تحول فى حياة شاعرنا من مرح إلى كآبة ، ومن تفاؤل إلى تشاؤم ، لعلك متطلع إلى معرفة آراء السابقين فى ذلك . ونحن حين نحاول الإشارة باختصار إلى تلك الآراء ، نرجو من القارئ أن يتذكر ما قدمناه فى صدر بحثنا من أن الشاعر كان ملتويا فى التعبير عن آرائه ، لما كانت تتضمنه أحيانا من مهاجمة الخلفاء والوزراء ، ولذلك كان من الصعب أن يصل مؤرخو الأدب إلى أغراض الشاعر الحقيقية ، إلا إذا توفروا على دراسته دراسة تحليلية ، وأوتوا الزمن الكافى لمثل تلك الدراسة ، وذلك مالم يحظ به الشاعر من قبل ، وهكذا عاش شاعرنا مجهولا حتى أمس القريب ، لا يعرف عنه الناس إلا أنه كان زاهدا ، وذلك ما نرجو أن ينتهى هذا البحث إلى نفيه عن الشاعر نفيا تاما

ومع أننا قد اعتمدنا فى تكوين رأينا عن الشاعر على دراسة بيئته وطفولته ثم أشعاره دراسة هادئة مطمئنة ، فإننا نظلم القدماء إذا لم نذكر أنهم أيضا قد أوردوا بعض لمحات يمكن أن يهتدى بها السارى فى دياجى تلك الحياة المعقدة الغامضة ، ونعنى حياة شاعرنا . من ذلك ما أورده الأغانى من محاورات دارت مع الشاعر أو دارت حوله ، أو أبيات شعرية قيلت فيه من أعدائه ومنافسيه ، وكل ما يقال عن تلك الأخبار أنها كانت سلبية ، ونعنى بذلك أنها بما أكدته من بخل الشاعر الشديد وحرصه العظيم على جمع المال ، قد نفت أن يكون الشاعر قد نهج نهجه الجديد فى الحياة ، الذى يبدأ عام ١٨٠ هجرية تحت تأثير ميل حقيقى إلى الزهد كما نعرفه نحن ، ولكنها تقف مكتوفة اليدين عند ذلك الحد ، فلا تذكر لماذا إذن لبس ملابس الزهاد وأكثر القول فى الزهد

من ذلك تلك المحاورة التى دارت بينه وبين ثمامة بن أشرس حينما قال الشاعر :

ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقال له ثمامة : إن كنت تؤمن بما تقول ، فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة فى دارك ، لا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك ؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة . ومن ذلك أيضا ما رواه صاحب الأغانى عن العباس بن عبيد الله قال : كنا عند قثم بن جعفر بن سليمان وعنده أبو العتاهية ينشد فى

(١) لنا عودة إن شاء الله تعالى إلى هذه النظرية

الزهد فقال قثم : ياعباس اطلب الساعة الجاز(١) حيث كان ولك عندى سبق فطلبته، وحين حضر مجلس قثم وجد أبا العتاهية مازال ينشده فى الزهد ، فأنشأ الجاز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد

فلو علم قثم أن أبا العتاهية صادقا فى التعبير عن شعوره حينما يقول فى الزهد لما عبث به كل ذلك العبث ؛ ولما أغرى الجاز به

ولكن إبراهيم بن المهدى يخطو خطوة إلى الأمام ، فيذكر بعض ما كان يدفع الشاعر إلى القول فى الزهد :

لا يعجبنك أن يقال مفوه حسن البلاغة أو عريض الجاه
إنى رأيتك مظهرا ازهادة تحتاج منك لها إلى أشياء

فهو يبدى شكه الشديد فى صدق الشاعر فيما يدعيه من زهده، ويعتقد أنه إنما يقول ما يقول كى يبنى له جاها بين العامة الذين يستهويهم كل ما يدور حول الدين من أحاديث . أو لعله يشير إلى ما كان للشاعر من نفوذ وصولة نتيجة لاتصاله بالفضل بن الربيع وزبيدة

ولعل أكثر الناس معرفة بأسلوب أبى العتاهية فى الحياة هو أبو العلاء المعرى ، وقد دون رأيه فيه فى مقطوعتين من الشعر يقول فى إحداها :

الله يرفع من يشا ء رتبة من بعد رتبه
أظهر العتاهى نسكا وتاب عن حب عتبه
والخوف ألزم سفيا ن أن يحرق كتبه

فأنت ترى شك أبى العلاء فى نسك أبى العتاهية وسخريته منه واضحة فى البيتين الأولين ، ويزيد البيت الثالث ذلك الشك تأكيدا بما يعتقده من مقارنة بين حال شاعرنا وحال سفيان الثورى الذى دفعه خوفه من الخليفة إلى تحريق (٢) كتبه . وكأن أبا العلاء يريد أن يشير إشارة لطيفة إلى أن أبا العتاهية إنما تظاهر بالزهد ، وأكثر من القول فيه ليستر ما كان يضمره للخليفة من بغض ، وأنه كان يعنى الخليفة نفسه بكثير مما كان يقوله فى ذلك الباب على نحو ما سنشرحه بعد

وفى المقطوعة الأخرى يقول أبو العلاء :

أرى ابن أبى إسحق (٣) أسحقه الردى
وأدرك عمر الدهر نفس أبى عمرو
تباهوا بأمر صيروه مكاسبا
فعاد عليهم بالخسيس من الأمر
بكسوة برد أو بإعطاء بلغة
من العيش لا جم العطاء ولا غمر
فلا يضع الله الساعى فى النقى
فمن يسع فيها لا يخف غبن الدهر

أما ما قاله الكوفى (٤) فى الزهد مثل ما

تغنى به البصرى فى شفة الخمر

فأبو العلاء يدعو أهل العلم والأدب هنا أن يسموا بأذيهم فوق حاجات بطونهم وأجسادهم ، وأن يهدفوا فيما يقولون إلى أغراض أسمى وأنبل من أغراض هذه الحياة الفانية . وبيته الأخير ظاهر فى تأييد ما ندعو إليه خاصا بزهد أبى العتاهية ، إذ لا يرى فرقا كبيرا بين زهديات أبى العتاهية ، وخمريات أبى نواس ، حيث أن كلا منهما كان يجرى بشعره وراء غرض مادى ، وإن اختلفا فى الطريقة والمذهب

أما المستشرقون فهم فى نفس الحيرة والاضطراب التى كان فيها الأوائل حول مقاصد الشاعر ، ويقترب نيكلسون منا اقترابا شديدا ، حين يشير إشارة خفيفة فى هامش كتابه L.h.A ، إلا أن أبا العتاهية ربما كان قد ترك مجلس الخليفة ومال إلى الزهد لكراهيته للحياة التى كان يحياها شعراء البلاط فى ذلك الوقت

محمد عبد العزيز الكفراوى

(١) الجاز بن أخت سلم الخاسر ، وقال هذه الأبيات انتقاما لخاله الذى قال فيه أبو العتاهية

تعال الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

(٢) ذكر صاحب تاريخ بغداد أن سفيان أخفى كتبه حين تخوف الخليفة

(٣) أبو إسحق وأبو عمرو كانا عالمين بالعربية طال بينهما الهجاء والخصومة الأدبية

(٤) الكوفى أبو العتاهية والبصرى أبو نواس